الحزين حين يرثى نفسه أو يحن إلى أهله ، ومن حوله أبطال آخرون من الرفاق ، أو من أدواته القتالية ، أو ممن يتمنى أن ينقلوا عنه رسائله ويشاركونه أحزانه مع القوم ، وهو إيقاع قصصى يزيده عمقا استعانته بتحريك الحدث من خلالهم ، وهو تحريك يبدو غاية فى الخصوصية حين يظل محكوما بمنطق الاستطراد والتوزُّع بين مشاهد الماضى والحاضر ، أو بين الواقعَيْن المادى والنفسى ، أو بين القرب إليه والبعد عنه ، - وهذه قليلة - تظل مرهونة بلغة الحوار التى ازدحمت بها الأبيات بين حديثه إلى الرفاق ، أو الأهل ، خضوعا منه للواقع أو للأمنية ، وهو حوار يتكرر بين حين وآخر ، فلعله يخفف عنه شيئا من آلام نفسه المكلومة .

(٢)

وحتى لايطول الحوار فى غير معترك دعنا نتصور الشاعر وقد أعدَّ هذه القصيدة قبل أى من ظواهر الموت الحقيقية ، خاصة أن معالم الصنعة الفنية المتأنية تبدو واضحة فيها إلى جانب الإطالة ، مما ينأى بها عن طبيعة الارتجال ومنطقة البديهة والسرعة الفنية ، إذ ربما نظمها الشاعر فى زحام أحاسيسه بالغربة والحنين إلى وطنه ، أو ترقب الموت المتوقع فى أرض نائية ، ولذا فهو يلج بقصيدته ضمن باب شديد الخصوصية بين أبواب الرثاء ، ويبدأ العرض الفنى لدي الشاعر من تدفق حنينه إلى الأرض والوطن والتشبث بالماضى ، والوفاء بالعهد من خلال ما ردَّده حول الغضا والرمل والقلاص والحداء والظباء وسهيل (كما مر بنا) .

ثم يستمر العرض من خلال تعميق الإحساس بالماضى ، ومحاولة النفاذ إليه باجترار ذكرياته من منطلق الوفاء الأسرى ، ذلك الذى عكسته عاطفتا البنوة والأبوة ، وهو ما يلتقى مع الوفاء الحربى للفارس حين يتوحَّد مع أدوات قتاله فى ميدان الحرب :

فإن أنج من بابَىْ خراسان لا أعـــد إليها وإن منيتمونى الأمانيـــــا

وتتأجج عاطفة الشاعر وتتبلور انفعالاته فى سياق زوايا محددة يستطرد بينها ويدور حولها عبر القصيدة ، فهو لا يخفى حنينه الجارف إلى أهله ، بل تتضخم لديه رموز المواطنة وقد راحت تسيطر على وجدانه وتستحوذ على ضميره ، فإذا به يكرر الإلحاح على إظهار عاطفة الحنين بشكل عام ومطلق ، وكأنه يحكى من خلاله قصة تواصله الطبيعى مع أهله ورفاق ماضيه فى عالم الصعلكة ، وهوما يصرح به مراراً من خلال حتمية ذلك التواصل:

دعانى الهوى من أهل ودى وصحبتى بذي الطبسَيْن فالتفتُّ ورائيـــــا